القصيدة التائية بين أبي إسحاق الإلبيريّ(نحو ٤٦٠هـ) والعلاّمة الحليّ (٧٢٦هـ)

م.د. محمد حليم حسن الكروي

مديرية تربية بابل

The Ta’i poem between Abu Ishaq Al-Ilbiri (about 460 AH) and the Allama Al-Hilli (726 AH)

Lect. Dr Muhammad Halim Hassan Al-Karwi

Babylon Education Directorate

ملخص البحث

تعدّ أخطاء النساخ وجهلهم من الأسباب الشائعة في نسبة نص نثري أو أدبي قد ذاع صيته لشخصية ما إلى شخصية أخرى ولا سيما إذا تشابهت الشخصيتان في النهج والوظيفة، ويضاف إلى أخطاء النساخ وجهلهم أحيانًا تعمدهم في تغيير نسبة نص أدبي وذلك بدافع سياسي أو ديني أو اجتماعي؛ ولعل ذلك يحصل بين شخصية مشهورة وأخرى مغمورة ؛لكي تزداد قيمتها لكن أن يحصل ذلك بين شخصيتين مشهورتين وفي مكانين وزمانين مختلفين فهذا ما يحرّك الأذهان ويجعلها تتساءل عن الأسباب الكامنة وراء ذلك، فنجد أن القصيدة الزهديَّة التائيَّة، نُسبت للشاعر الأندلسي الإلبيري (نحو ٤٦٠هـ)، و للعلّامة الحليّ (٧٢٦هـ) أيضًا، الأمر الذي جعلني أبحث في هذا البحث عن الأسباب الكامنة وراء هذه النسبة المزدوجة مع ترجيح لنسبة أحدهما على الآخر فضلًا عن تحقيق القصيدة إذ وردت القصيدة في نسخ مخطوطة وقد نسبت للعلامة الحليّ (رحمه الله).

Abstract

Scribes' errors and their ignorance are among the common reasons for attributing a well-known prose or literary text to another, especially if the two characters are similar in their approach and function. In addition to the scribal errors and ignorance, sometimes the attribution of a literary text is deliberately changed for a political, religious or social motive. Perhaps this happens between a famous personality and another obscure one in order to increase its value. However, when this happens between two famous personalities and in two different places and times, it stirs the minds and makes them wonder about the reasons behind that. I find that the ascetic poem Al-Ta'i was attributed to the Andalusian Iberian poet (about 460 AH), and the Allamah Al-Hilli (726 AH) also, which made me search for the reasons behind this dual attribution. While the attribution is weighted to one over the other, also the poem has been verified, as the poem was mentioned in manuscript copies and was attributed to Allama al-Hilli (may God have mercy on him).

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين أبي القاسم محمّد وعلى آله وصحبه المنتجبين.

أمّا بعد...

لا يخفى على المتتبع للتراث العربي (الديني، والأدبي) كثرة الخلط الذي مرّ على هذا التراث، فكثير منه ضاع أو فُقد، وجزء منه نسب إلى غير صاحبه أما لجهل من الناسخ أو الناقل أو نتيجة للصراعات الفكريَّة بين المذاهب والأقوام، إذ يعمد البعض إلى نسبة ديوان أو كتاب أو قصيدة أو رواية معينّة أو رأي في مسألة ما إلى شخص أو أشخاص هم أبعد ما يكونوا عنه؛ ويكشف ذلك -بطبيعة الحال- مجموعة من المعطيات التي تتعلّق بهذه الشخصيات منها: البيئيّة، والعلميّة، والاجتماعيّة، فضلًا عن مواقف أخرى تساعد الباحث في تحديد النسبة من عدمها لهذا العالم أو ذاك.

يحاول البحث أن يقف على حقيقة نسبة القصيدة الزهدية التائية، إذ نسبت للشاعر الأندلسي الإلبيري (نحو ٤٦٠هـ)، و للعلّامة الحليّ (٧٢٦هـ) رحمهما الله؛ لذلك -وفي سبيل تحقيق هذا الهدف- قسمنا البحث على مبحثين تسبقه مقدمة فضلًا عن الخاتمة والمصادر والمراجع المعتمد عليها.

فتحدثنا في المبحث الأول عن فن الزهد بشيء من الإيجاز وعن بنية القصيدة ومضمونها ثم أردفنا ذلك بنص القصيدة المحققة بالاعتماد على مخطوطتين، الأولى نسخة مجلس طهران والمرقمة (٤١٤٧٥) المهداة من الطباطبائيّ، ورمزت لها (أ) وهي الأم، وقد نسخت في (ق١٢)، مكونة من (٥) صحف، بواقع(١٥,٥×١٠,٥) والثانية نسخة طهران ملي والمرقمة

(١٥٦٦٤/ ٥)، ورمزت لها (ب)، من دون ذكر لاسم الناسخ، أو تاريخ النسخ، وبخط (النستعليق).

وقد كُتبت النسختان بخط واضح لا يشوبه الخلط بل عمد الناسخ إلى اعتماد شكل هندسي جميل في كتابتهما.

وكان عملي في هذا المبحث ينطلق من مقابلة النسختين، إذ لفقت بينهما في مرحلة المقابلة، وقد أشرت إلى الفروق بين النسختين في الهامش مع بيان لبعض الكلمات التي تحتاج إلى توضيح.

ومن الجدير بالذكر أنَّ هناك فروقات بين قصيدة الإلبيريّ وقصيدة العلاّمة الحليّ ، تمَّ رصدها وتثبيتها في هامش القصيدة المحققة؛ بغية كشف آلية النسخ و من ثم محاولة الاستفادة من هذه الاختلافات في كشف النسبة الحقيقية للقصيدة.

أما المبحث الثاني فقد كان بعنوان (القصيدة التائيَّة بين الإلبيري والعلاّمة الحلِّي)، إذ بحثنا في بعض المعطيات التي قد تسهم في كشف حقيقة نسبة هذه القصيدة.

إنَّ نسبة القصيدة للعلاّمة الحليّ وردت في هاتين المخطوطتين وبعض المؤلفات والفهارس التي فهرست أعمال العلاّمة الحلِّي، أمّا الإلبيري فقد ذكرت في ديوانه وفي بعض المصادر الأدبيَّة التي تناولت هذا الشاعر.

المبحث الأول

- مدخل عن فن الزهد.
- بنية القصيدة ومضامينها.
- القصيدة التائية محققةً.

- فنُّ الزهد[١]

يعدّ الزهد من أكثر الأغراض الشعريَّة التي كُتب لها الاستمرار في الحياة البشريَّة، وذلك يرجع بالأساس إلى ارتباطها بهذه الحياة البشريَّة التي تُنتج مجموعة من العوامل -السياسيَّة، والاجتماعيَّة، والفكريَّة- التي تجعل

الإنسان يسعى إلى العزلة وهجر الحياة الدنيا وأهوائها، والشعراء جزء من هذا الكون الإنساني؛ لذلك عبَّروا عن أفكارهم الزهديَّة بواسطة شعرهم الذي يمثّل تلك الأحاسيس الإيمانيَّة لديهم.

والزهد يدعو -في مجمله- إلى التقرّب من الله تعالى واتباع أوامره ونواهيه وهجر الملذات الدنيويَّة والاقتناع بالحياة الأبديَّة التي وعدنا الله تعالى بها.

أمّا عن تاريخ ظهوره وتكونه فكغيره من الفنون لا يوجد دليل جامع مانع على لحظاته الأولى مع الإنسان لكن عند العرب يبدو أنه ظهر في العصر الإسلامي مع تغلغل المعاني الإسلاميّة في الفكر العربي، لكنه حقق ظهورًا أوضح في العصر العباسيّ والعصر الأندلسيّ مع شيوع حياة الترف واللهو، فهو ردّ فعل على هذه الحياة الباذخة الصاخبة التي مرّ بها الشاعر العربي وعبَّر عنها.

ومن الجدير بالذكر أنّ كثيرًا من شعراء الزهد مرّوا بحياة اللهو والملذات قبل وصولهم إلى مرحلة الزهد كأبي نواس وأبي العتاهية و صالح عبد القدوس، وغيرهم كثير.

إنّ القصيدة التي بين أيدينا هي من النوع الزهديّ تحمل في طياتها ما يحمله عموم الشعر الزهدي إذ امتازت بالسهولة اللفظية والمعنوية مع رقة الموسيقا وبعدها عن التعقيد؛ مخاطبة بذلك جمهورًا واسعًا من القراء، فهي تدعو إلى التمسّك بالخلق القويم، وهجر الدنيا بتفاصيلها كافة، والالتزام من خلال العلم والمعرفة، بعيدًا عن التكبر ومحاولة التميّز الدنيوي، فالإنسان فانٍ سيرحل في لحظة ما عن هذه الدنيا اللعوب.

- بنية القصيدة ومضامينها:-

تعدّ القصيدة التائيّة من أشهر القصائد الزهديّة التي قيلت في هذا الفن فلا تجدّ

مؤلفًا يتكلم عن فن الزهد إلّا وأشار إليها فضلًا عن تعدّد شروحها على الرغم من بعدها عن التعقيد الشعري. يبدأ الشاعر القصيدة من دون مقدمات فيدخل مباشرة في موضوعها واصفًا فِعل الأيام بالإنسان، فيقول:

تَفِتُّ فُؤَادَكَ الأَيامُ فتًّا
وَتَنحتُ جِسمَكَ السَّاعاتُ نَحتَا
وَتَدعوكَ المَنونُ دُعاءَ صِدقٍ
أَلا يا صاحِ أَنتَ أُرِيدُ أَنتَا!

وهو بذلك يصدم القارئ بحقيقة الدنيا الأمر الذي يجعله يتفكّر في نفسه جراء هذا الأسلوب المباشر في الوعظ، ثم ينتقل إلى بيان طرائق النجاة من هذه الحياة وأبسط طريقة لذلك هي العلم والمعرفة، فيقول:

ألا إني دَعَوتُكَ لَو أَجَبتا
إِلى ما فيهِ حَظُّكَ إِن عَقَلتا
إِلى عِلمٍ تَكونُ بِهِ إِماماً
مُطاعاً إِن نَهَيتَ وَإِن أَمَرتا
وَتَجلو ما بِعَينِكَ مِن غِشَاها
وَيهديكَ السَبيلَ إِذا ضَلَلتا

يعرض الشاعر في هذه الأبيات وما بعدها قيمة المتعلّم ومكانته وعلو شأنه بين أقرانه مؤكدًا بأنَّ العلمَ سلاحٌ ناجعٌ في كلّ وقت لا خوف عليه من عاديات الدهر.

ثم يطلب من المقصود بالقصيدة (أبو بكر، فخر المحققين) أن يتنازل عن هذه الدنيا ويعزل نفسه عنها فهي دار فناء لا دار بقاء، فيقول:

فَلَيسَت هَذِهِ الدُنيا بِشَيءٍ
تَسرُكَ مدة وَتسوء وَقتَا

وهكذا يمضي في فصول القصيدة يدور حول هذه المعاني ويقدمها لنا بقالب شعري، غلّفته العاطفة التي تخاطب النفس البشرية بأسلوب رجائي ينطوي على الترهيب والترغيب سعيًا منه لقتل الكِبر لدى الإنسان، وهو أسلوب زهدي عمل

به شعراء الزهد مستفيدين من القرآن الكريم في اتباع الترهيب والترغيب مع الإنسان عمومًا.

امتازت القصيدة التائية بوحدة الموضوع إذ التزم الشاعر منذ بدايتها بموضوع الزهد ولم يغادرها من بداية القصيدة إلى نهايتها، فقدّمت القصيدة مجموعة من الأفكار الزهديّة -كما أسلفنا- لكن الذي يميّز هذه القصيدة أنّ الشاعر يكرّر المعاني بألفاظ مختلفة، فالأفكار الشعرية المطروحة في ساحة القصيدة تتحرك بين الابتعاد عن الدنيا والزهد فيها والتخويف من عواقب الانجرار إلى متاهاتها وبين النجاة منها بالعلم والمعرفة، وذلك بأسلوب تمتزج فيه الحدة بالرقة الموسيقية حسب الأفكار التي يقدمها الشاعر والتي تمتزج بخبرة حياتية واضحة.

إنَّ الذي يقرأ القصيدة يلاحظ أنَّها انتهجت أسلوبًا أشبه ما يكون بالسرد القصصي، فهي تقوم على فكرة مفادها الخوف من الله تعالى والابتعاد عن نواهيه والالتزام بأوامره، وقد قدّم هذه الأفكار بشيء من الإسهاب، لكن بطريقة متتابعة تجعل القارئ في حالة قبول وتوافق مع المضامين التي تقدمها الأبيات.

لقد استخدم الشاعر البحر الوافر في بناء قصيدته، وهي مكنونة من (مائة وخمسة) أبيات، في حين تحتوي قصيدة الإلبيري على (مائة واثني عشر) بيتًا، فالفرق بينهما (سبعة) أبيات، واستخدام هذا البحر أتاح الشاعر تقديم المعنى بمرونة كبيرة، إذ إنَّه من البحور الممزوجة التي تتنوّع التفعيلات فيها الأمر الذي يعطي للشاعر إمكانية تضمين شعره كثيرًا من الأفكار الزهدية، وبذلك كان هذا البحر مفيدًا للدلالة الشعريّة التي أرادها الشاعر.

لقد استخدم الشاعر لغة سهلة وبسيطة واضحة المقاصد؛ لأنّه يخاطب

طبقة واسعة من المتلقين، وبذلك لم يبتعد عن منهج الشعر الزهدي الذي عُرف عنه السهولة والبساطة في تقديم المعنى؛ ولعل ذلك يكون سببًا في شيوع هذه القصيدة ومن ثم نسبتها للعلّامة الحليّ .

القصيدةُ محققةٌ

للعلّامة الحليّ (رحمة الله عليه) في الوصية لولده العزيز فخر المحققين(رضوان الله عليه):

تَفِتُّ فُؤَادَكَ الأَيامُ فتّا
وَتَنحتُ جِسمَكَ السَّاعاتُ نَحتا
وَتَدعوكَ المَنونُ دُعاءَ صِدقٍ
أَلا يا صاحِ أَنتَ أُريدُ أَنتا!
أَراكَ تُحِبُّ عِرساً ذاتَ غَدرٍ
أَبَتَّ طَلاقَها الأَكياسُ بَتّا
تَنامُ الدَهرَ وَيحَكَ في غَضيضٍ[٢]
بِها حَتّى إِذا مِتَّ اِنتَبهتا
وكَم ذا أَنتَ مَخدوعٌ وَحَتّى
مَتى لا تَرعَوي عَنها وَحَتّى؟
أَلا إِني دَعَوتُكَ لَو أَجَبتا[٣]
إِلى ما فيهِ حَظُّكَ إِن عَقَلتا
إِلى عِلمٍ تَكونُ بِهِ إِماماً
مُطاعاً إِن نَهَيتَ وَإِن أَمَرتا
وَتَجلو ما بِعَينِكَ مِن غِشاها
وَيهديكَ السَبيلَ إِذا ضَلَلتا
وَتَحمِلُ مِنهُ في ناديكَ تاجاً
وَيَكسوكَ الجَمالَ إِذا اِغتَرَبتا
يَنالُكَ نَفعُهُ ما دُمتَ حَيّاً
وَيَبقى أَجرُهُ[٤] لَكَ إِن ذَهَبتا
هُوَ العَضبُ المُهَنَّدُ لَيسَ يَنبو
تُصيبُ بِهِ مَفاصِلَ[٥] مَن ضَرَبتا
وَكَنزٌ لا تَخافُ بِهِ لِصّاً
خَفيفَ الحَملِ يوجَدُ حَيثُ[٦] كُنتا
يَزيدُ بِكَثرَةِ الإِنفاقِ مِنهُ
وَينقُصُ أَن بِهِ كَفّاً شَدَدتا
فَلَو إِن ذُقتَ مِن حَلواهُ طَعماً
لَآثَرتَ التَعَلُّمَ وَاِجتَهَدتا
وَلا أَلهاكَ[٧] عَنهُ أَنيقُ رَوضٍ
وَلا خَودٌ بِزينَتِها[٨] كَلِفتا
وَلَم[٩] يَشغَلكَ عَنهُ هَوى مُطاعٌ

وَلا دُنيا بِزُخرُفِها[١٠] فُتِنتا
قَد اِرتَفَعوا عَلَيكَ وَقَد سَفَلتا

فَقوتُ الروحِ أَرواحُ المَعاني
فَراجِعها وَدَع عَنكَ الهُوَينا

وَلَيسَ بِأَن طَعِمتَ وَأَن شَرِبتا
فَما بِالبُطءِ تُدرِكُ ما طَلَبتا

فَواظِبهُ وَخُذ بِالجِدِّ فيهِ
وَلا تَحفِل بِمالِكَ وَالهُ عَنهُ

وإِن أَعطاكَهُ اللهُ أَخَذتا
فَلَيسَ المالُ إِلّا ما عَلِمتا

وَإِن أوتيتَ فيهِ طَويلَ باعٍ
وَلَيسَ بعالمٍ والناسِ مَغنىً

وَقالَ الناسُ إِنَّكَ قَد سَبَقتا
وَلَو مُلكُ العِراقِ لَهُ تَأَتّى

فَلا تَأمَن سُؤالَ اللهِ عَنهُ
فَيَنطِقُ عَنكَ عِلمُكَ في نَدِيٍّ

وتَوبيخًا: عَلِمتَ فَهَل عَمِلتا؟
وَيُكتَبُ عَنكَ يَوماً إِن كَتَبتا

فَرَأسُ العِلمِ تَقوى اللهِ فيه[١١]
وَما يُغنيكَ تَشييدُ المَباني

وَلَيسَ بِأَن يُقال: لَقَد رَأَستا
إِذا بِالجَهلِ نَفسَكَ قَد هَدَمتا

إِذا ما لَم يُفِدكَ العِلمُ خَيراً
جَعَلتَ المالَ فَوقَ العِلمِ جَهلاً

فَخَيرٌ مِنهُ أَن لَو قَد جَهِلتا
لَعَمرُكَ بالقَضيَّةِ ماعَدَلتا

وَإِن أَلقاكَ فَهمُكَ في مَهاوٍ
وَأفضل ثَوبِكَ الإِحسانُ أَلّا

فَلَيتَكَ ثُمَّ لَيتَكَ ما فَهِمتا
تَرى ثَوبَ الإِساءَةِ قَد لَبِستا

سَتَجني مِن ثِمارِ العَجزِ جَهلاً
وَبَينَهُما بِنَصِّ الذكرِ بَينٌ[١٣]

وَتَصغُرُ بالعُيونِ إِذا كَبُرتا
سَتَعلَمُهُ إِذا طَهَ قَرَأتا

وَتُفقَدُ إِن جَهِلتَ وَأَنتَ باقٍ
فإِن[١٤] رَفَعَ الغَنيُّ لِواءَ مالٍ

وَتبقى إِن عَلِمتَ وَإِن فُقِدتا
لَأَنتَ لِواءَ عِلمِكَ قَد رَفَعتا

وَتَذكُرُ قَولَتي لَكَ بَعدَ حينٍ
وَتَعطُلُها[١٢] إِذا عَنها شُغِلتا

إِذا أَبصَرتَ صَحبَكَ في سَماءٍ

وَإِن جَلَسَ الغَنيُّ عَلى الحَشايا
فَأَنتَ عَلى الكَواكِبِ قَد جَلَستا
وَإِن رَكِبَ الجِيادَ مُسَوَّماتٍ
لَأَنتَ مَناهِجَ التَقوى رَكِبتا
وَمَهما اِفتَضَّ أَبكارَ الغَواني
فَكَم بِكرٍ مِنَ الحِكَمِ اِفتَضَضتا
وَلَيسَ يَضُرُّكَ الإِقتارُ شَيئاً
إِذا ما أَنتَ رَبَّكَ قَد عَرَفتا
وما[١٥] عِندَهُ لَكَمِن جَميلٍ
إِذا بِفِناءِ طاعَتِهِ أَنَختا
فَقابِل بِالقَبولِ صَحيحَ نُصحي
وإِن أَعرَضتَ عَنهُ فَقَد خَسِرتا
وَإِن راعَيتَهُ قَولاً وَفِعلاً
وإِن تاجَرتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحتا
فَلَيسَت هَذِهِ الدُنيا بِشَيءٍ
تَسُرّكَ مُدةٌ وَتَسُوء[١٦] وَقتا
وَغايَتُها إِذا فَكَّرتَ فيها
كَظِلكَ[١٧] أَو كَحُلمِكَ إِن حَلَمتا
سُجِنتَ بِها وَأَنتَ لَها مُحِبٌّ
فَكَيفَ تُحِبُّ ما فيهِ سُجِنتا
وَتُطعِمُكَ الطَعامَ وَعَن قَريبٍ
سَتَطعَمُ مِنكَ ما مِنها طَعِمتا
وَتَعرى إِن كُسيتَ بِها ثِياباً
وَتُكسى إِن مَلابِسَها خَلَعتا
وَتَشهَدُ كُلَّ يَومٍ دَفنَ خِلٍّ
كَأَنَّكَ لا تُرادُ لِما شَهِدتا
وَلَم تُخلَق لِتَعمُرها وَلَكِن
لِتَعبُرَها فَجِد لِما خُلِقتا
وَلا تَحزَن عَلى ما فاتَ مِنها
إِذا ما أَنتَ في أُخراكَ فُزتا
وَإِن هُدِمَت فَزِدها أَنتَ هَدماً
وَحَصِّن أَمرَ دينِكَ ما اِستَطَعتا
فَلَيسَ بِنافِعٍ ما نِلتَ فيها[١٨]
مِنَ الفاني إِذا الباقي حُرِمتا
وَلا تَضحَك مَعَ السُفَهاءِ لَهواً[١٩]
فَإِنَّكَ سَوفَ تَبكي إِن ضَحِكتا
وَكَيفَ لَكَ السُرورُ وَأَنتَ رَهنٌ
وَلا تَدري لِخَيرٍ أَم لِشَرٍ قَد خُلِقتا[٢٠]
وَسَل مِن رَبِّكَ التَوفيقَ فيها
وَأَخلِص في دعاكَ[٢١] إِذا سَأَلتا

وَنادِ إِذا سَجَدتَ لَهُ اِعتِرافاً ... وَلَم أَظلُل بِوادٍ فيهِ ضيمٌ[٢٤]

بِما ناداهُ ذو النونِ بنُ مَتّى ... وَأَنتَ حَلَلتَ فيهِ وَاِنهَمَلتا

وَلازِم بابَهُ قَرعاً عنيفًا ... وَلَم أَنشَأ بِعَصرٍ فيهِ نَفعٌ

سَيفتَحُ بابَهُ لَكَ إِن قَرَعتا ... وَأَنتَ بِهِ نَشَأتَ وَما اِنتَفَعتا

وَأَكثِر ذِكرَهُ في الأَرضِ دَأباً ... وَقَد صاحَبتَ أَعلاماً كِباراً

لِتُذكَرَ في السَماءِ إِذا ذَكَرتا ... فلَم أَرَكَ اِقتَدَيتَ بِمَن صَحِبتا

وَلا تَقُل الصِبا فيهِ مَجالٌ ... وَناداكَ الكِتابُ فَلَم تُجِبهُ

وَفَكِّر كَم صَغيرٍ قَد دَفَنتا! ... وَنَبَّهَكَ[٢٥] المَشيبُ فَما اِنتَبَهتا

وَقُل لي يا نَصيحُ لَأَنتَ أَولى ... فَيَقبُحُ بِالفَتى فِعلُ التَصابي

بِنُصحِكَ لَو بِعَقلِكَ قَد نَظَرتا ... وَأَقبَحُ مِنهُ شَيخٌ قَد تَفَتّى[٢٦]

تُعيرُني[٢٢] عَلى التَفريطِ لَوماً ... فَنَفسَكَ ذُمَّ لا تَذمُم سِواها

وَبِالتَفريطِ دَهرَكَ قَد قَطَعتا ... بِعَيبٍ فَهِيَ أَجدَرُ مَن ذَمَمتا

وَفي صِغَري تُخَوِّفُني المَنايا ... فَلَو بَكَت الدَما عَيناكَ خَوفاً

وَما تَجري بِبالِكَ حينَ شِختا ... لِذَنبِكَ لَم أَقُل لَكَ قَد أَمِنتا

وَكُنتَ مَعَ الصِبا أَهدى سَبيلاً ... وَمَن لَكَ بِالأَمانِ وَأَنتَ عَبدٌ

فَما لَكَ بَعدَ شَيبِكَ قَد نُكِصتا ... أُمِرتَ فَما اِئتَمَرتَ وَلا أَطَعتا

فها أَنا لَم أَخُض بَحرَ الخَطايا ... رَجَعتَ القَهقَرى وَخَبَطتَ عَشوا

كَما قَد خُضتَ حَتّى إِن[٢٣] غَرِقتا ... لَعَمرُكَ لَو وَصَلتَ لَما رَجَعتا

وَلَم أَشرَب حُمَيّاً أُمِّ دَفرٍ ... ثَقُلتَ مِنَ الذُنوبِ فَلَستَ تَخشى

وَأَنتَ شَرِبتَها حَتّى سَكِرتا ... لِنفسك أَن تُحاسب إِذ وُردتا[٢٧]

وَتُشفِقُ لِلصبيّ[٢٨] عَلى المَعاصي
وَتَرحَمُهُ وَنَفسَكَ ما رَحِمتا[٢٩]
وَلَو قَد جِئتَ يَومَ الحشر فَرداً
وَأَبصَرتَ المَنازِلَ فيهِ شَتّى
لَأَعظَمتَ النَدامَةَ فيهِ لَهفاً
عَلى ما في حَياتِكَ قَد أَضَعتا
فَلا تُكذَب فَإِنَّ الأَمرَ جِدٌّ
وَلَيسَ كَما حَسِبتَ[٣٠] وَلا ظَنَنتا[٣١]
تَفِرُّ مِنَ الجحيمِ وَتَتَّقيهِ
فَهَلّا من جَهَنَّمَ قَد فَرَرتا[٣٢]
ولا تَرضَ المَعايِبَ فَهِيَ عارٌ
عَظيمٌ يُورِثُ الإِنسانَ مَقتا
وَتَهوي بِالعيوب[٣٣] مِنَ الثُرَيّا
وَتُبدِلُهُ مَكانَ الفَوقِ تَحتا
كَما الطاعاتُ تَبلغُكَ[٣٤] الذَراري
وَتَجعَلُكَ القَريبَ وَإِن بَعُدتا
وَتَنشُرُ عَنكَ في الدُنيا جَميلاً
وَتُلقى[٣٥] البَرَّ فيها حَيثُ سِرتَا
وَتَمشي في مَناكِبِها عزيزاً[٣٦]
وَتَجني المجدَ عَمّا[٣٧] قَد عرَفتا
فأَنتَ الآن لَم تُعرَف بِعارٍ[٣٨]
وَلا دَنَّستَ عرضك[٣٩] مُذ نَشَأتا
ولا سابقت في ميدان دين[٤٠]
وَلا أَوضَعتَ فيهِ وَلا حللتا[٤١]
وَتدَنَّسَ[٤٢] ما تَطَهَّرَ مِنكَ حَتّى
كَأَنَّكَ قَبلَ ذَلِكَ ما طَهُرتا
فَصِرتَ أَسيرَ ذَنبِكَ في وَثاقٍ
وَمن لَكَ بالخلاص إذا وثقتا[٤٣]
فخَف أَبناء جِنسِكَ وَاخشَ مِنهُم
كَما تَخشى الضَراغِمَ وَالسَبَنتا[٤٤]
وَخالِطهُم وَزايلهُم حِذاراً
وَكُن كالسامِريَّ إِذا لَمِستا
وَإِن جَهِلوا عَلَيكَ فَقُل سَلام
لَعَلَّكَ سَوفَ تَسلَمُ إِن فَعَلتا
وَمَن لَكَ بِالسَلامَةِ في زَمانٍ
تنالُ العُصمَ إِلّا إِن عُصِمتا
وَلا تَلبَث بِحَيٍّ فيهِ ضَيمٌ
يُميتُ القَلبَ إِلّا إِن كلفتا
وَغَرِّب فَالغَريبُ لَهُ نَفاقٌ
وَشَرِّق إِن بَريقَكَ قَد شَرِقتا

فاصل الزبد في الدنيا خمول
لأنت بها الأمير إذا زيدتا[٤٥]
وَلَو فَوقَ الأَميرِ يكونُ فيها
سُمُوّاً وَافتِخاراً كُنتَ أَنتا
وَإِن فَارقتَها وَخَرَجتَ مِنها
إِلى دارِ البقاء[٤٦] فَقَدَ سَلِمتا
وَإِن كَرَّمتَها وَنَظَرتَ فيها
بِإِجلالٍ وَنَفسَكَ قَد أَهَنتا
جَمَعتُ لَكَ النَصائِحَ فَامتَثِلها
حَياتَكَ فَهِيَ أَفضَلُ ما اِمتَثَلتا
وَطَوَّلتُ العِتابَ وَزِدتُ فيهِ
لأَنَّكَ في البَطالَةِ قَد أَطَلتا
ولا تَأخُذ بِتَقصيري وَسَهوي
وَخُذ بِوَصِيَّتي لَكَ إِن رَشَدتا[٤٧].

إلى هنا تنتهي القصيدة التي تنسبها هذه المخطوطات إلى العلامّة الحلِّيّ[٤٨] (رحمه الله).

المبحث الثاني

القصيدة التائية بين أبي إسحاق الإلبيريّ (نحو ٤٦٠هـ) والعلاّمة الحليّ (٧٢٦هـ)

توطئة

يهدف البحث إلى كشف النسبة الصحيحة للقصيدة التائيّة -السالفة الذكر- إذ دأبت المصادر إلى نسبة هذه القصيدة إلى الشاعر الأندلسيّ أبي إسحاق الإلبيريّ (نحو ٤٦٠هـ) وقد ذُكرت في ديوانه[٤٩] لكنها وعلى الرغم من ذلك نُسبت أيضًا في مصادر متأخرة للعلاّمة الحلِّيّ، والمقصود بالمتأخرة أنّها متأخرة عن الشاعر الإلبيريّ، وعن العلاّمة الحليّ أيضًا، فقد ذَكرت مجموعة من المخطوطات وكتب الفهارس وبعض المصادر[٥٠] أنّها للعلاّمة الحليّ.

ومن المعلوم من نظرية الانتحال أنَّ تغيير نسبة نص ما تتكفّل بها ظروف ترتبط سابقًا بالفخر والانتماء والارتقاء بشأن القبائل التي لا شأن لها بين القبائل الرائدة في المنطقة، أو يأتي الانتحال كمحاولة مقصودة من

قبل النساخ أو غيرهم بهدف الإساءة أو التشويه لبعض الشخوص وتاريخنا الأدبي حافل بمثل هذه المحاولات التي نجدها في المتون الأدبية المشهورة.

لكن السؤال -في مثل القصيدة التائية -ما الفائدة من نسبة القصيدة للعلّامة الحليّ أو للشاعر الإلبيريّ، ولا سيما أنَّ الشاعر الإلبيريّ كان مشهورًا بالزهديات؟ وما الداعي لنسبة هذه القصيدة للعلّامة الحليّ الذي لم يشتهر بهكذا نمط شعري بل عُرفت عنه الوصية النثرية[٥١] التي تحمل مضمونًا مقاربًا للقصيدة؟ وهل يتّسق أسلوب القصيدة -السالفة الذكر -مع أسلوب العلاّمة مع ولده فخر المحققين؟ وما موقف العلامّة من الشعر وهل للعلاّمة باع طويل في الميدان الشعري؟ وهل المعاني التي تضمنتّها القصيدة تنطبق مع صفات الفخر بمعنى هل يريد العلاّمة نصح ولده باتهامه بأشياء لم تعرف عنه؟ فضلًا عن الفارق الزمني بين الشخصيتين، ومدى التشابه والاختلاف بين نص الإلبيري ونص العلاّمة الحلِّيّ، وغيرها من التساؤلات التي سنحاكم النص وفاقًا لها والتي ستكشف لنا بالضرورة حقيقة هذا النص الشعري الذي يتميز فنيًا بالإبداع المعنوي والفكري.

وفي إطار محاولتنا الكشف عن نسبة القصيدة لصاحبها سنعمل على محاور عدّة تتعلق بالعلاّمة الحلِّيّ، هذه المحاور ستكشف لنا هل العلاّمة الحليّ قال هذه القصيدة أم نسبت إليه من قبل النساخ؟

المحور الأول: علاقة العلاّمة الحليّ بالشعر عمومًا

هل يمكن أن نَعدَّ العلاّمة الحليّ شاعرًا؟ وما العدد المطلوب من القصائد أو المقاطع؛ لكي نقول إنَّ فلانًا يعدّ من الشعراء؟

أشارت المصادر التي تناولت موضوعة العلاّمة الحليّ والشعر -

والتي دأبت على النقل النصي من بعضها البعض إذ لم تضفِ المصادر اللاحقة أي إضافة تتعلّق بعلاقة الحليّ بالشعر- على نقل نص صاحب (رياض العلماء) المولى الأفندي الذي قال:« بأنَّه أديب شاعر ماهر»[٥٢]، وقد أكّد على جودة طبعه في أنواع النظم، وأكد أنَّه وجد بعض أشعاره في بلدة أردبيل[٥٣]، وربما يعني هذا أنَّ المولى الأفندي حكم على العلاّمة بالمهارة والشاعرية من خلال اطلاعه على بعض المقاطع الشعرية المنسوبة له، أو التي قالها على قلتها.

في مقابل ذلك ذكر الخونساريّ الأصفهانيّ بأنَّه:« لم يقف على شعر يذكر للعلاّمة الحلِّيّ؛ لعدم وجود طبع النظم فيه، وإلّا لم يكن على اليقين بصابر عنه...»[٥٤].

وقد أشارت مصادر عدّة إلى بعض الأبيات الشعريَّة للعلاّمة الحلِّيّ، منها قوله مخاطبًا ابن تيمية:

لَو كُنتَ تَعلَمُ كُلَّمَا عَلِمَ الوَرَى
طرًّا لَصِرتَ صَدِيقَ كُلّ العَالَمِ
لَكِن جَهِلتَ فَقُلتَ إنَّ جَمِيعَ مَن
يَهوَى خِلَافَ هَوَاكَ لَيسَ بِعَالِمِ[٥٥]

وأيضا قوله عند طلبه السفر إلى العراق من سلطانية:

مَحَبَتِي تَقتَضِي مَقَامِي
وَحَالَتِي تَقتَضِي الرّحِيلَا
هَذَانِ خَصمَانِ لَستُ أَقضِي
بَينَهُمَا خَوفَ أنْ أَمِيلَا
وَلَا يَزَالَانِ فِي اختِصَامٍ
حَتّى نَرَى رَأْيَكِ الجَمِيلَا[٥٦]

ونقل التنباكي: ونقل السيد نعمة الله الجزائري عن العلاّمة الحليّ قوله:

لِي فِي مَحَبّتِهِ شُهودٌ أَربَع
وَشُهودُ كُلّ قَضيّةٍ اثنَانِ
خَفَقَانُ قَلبِي واضطِرَابُ مَفَاصِلِي
وَشُحُوبُ لَونِي واعتِقَالُ لِسَانِي[٥٧]

فضلًا عن مقطع أو مقطعين دأبت الكتب التي ترجمت للعلاّمة على

نقلها من مصادرها[٥٨].نحن هنا أمام موقفين، الأول يجعل العلاّمة شاعرًا ماهرًا، والثاني يجعله بعيدًا عن الشعر، ونحن نقول لو كان العلاّمة الحليّ شاعرًا فما الذي يمنعه من خوض هذه التجربة ونشرها مثلما فعل غيره- على كثرة الفقهاء الشعراء- وقد عُرف عنه كثرة التأليف والتدريس حتى أنّه كان كثير السفر للغاية العلميَّة؟

لا اعتقد بأنَّ للشعر مساحة كبيرة في حياة العلاّمة الحلِّيّ؛ لانشغاله بجوانب علمية وفقهية أخرى كان يمكن للشعر إضفاء المزيد من القوة لها لكنه أثر الابتعاد عنه، وربما الأبيات المذكورة عنه قالها مستشهدًا بها أي على سبيل التمثيل، وفي كل الأحوال لا يمكن عد العلاّمة الحليّ من شعراء ذلك العصر حتى لو جزمنا بأنّ هذه الأبيات له، ثمّ أنّ جميع هذه المقطوعات توحي بقصر النفس الشعري فكيف يكتب قصيدة كالتي نحن بصددها؟

المحور الثاني: شكل العلاقة بين العلاّمة الحليّ وولده الفخر.

كثيرة هي المصادر التي توضح لنا علاقة العلاّمة الحليّ بولده فخر المحققين ولا سيما مؤلفات والده (العلاّمة) التي أشار في بدايتها بأنَّها بطلب من ولده (الفخر)[٥٩]، إذ تبيّن هذه المقدمات ماهية العلاقة وتكشف لنا أيضًا خلق فخر المحققين، ولا يسعنا أن نذكرها جميعها بل سنتمثّل ببعض منها، فقد قال في (إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان):

«أمّا بعد، فإنّ الله تعالى كما أوجَبَ على الولدِ طاعةَ أبويه، كذلك أوجَبَ عليهما الشفَقَةَ عليه، بإبلاغ مرادِه في الطاعات، وتحصيلِ مآربِهِ من القربات، ولمّا كَثُرَ طلبُ الولدِ العزيز محمّد -أصلَحَ اللهُ تعالى أمرَ داريه، ووفّقَهُ للخير وأعانهُ عليه، ومَدَّ اللهُ له في العُمُرِ السعيدِ والعيشِ الرغيد- لتصنيف كتابٍ يحوي النكَتَ

البديعةَ في مسائل الشريعة، على وجهِ الإيجاز والاختصار، خالٍ عن التطويل والإكثار فأجَبْتُ مطلوبَهُ، وصنَّفتُ هذا الكتابَ الموسومَ بـ(إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان) مستمِدًّا من الله تعالى حُسنَ التوفيقِ وهدايةَ الطريق، والتَمَسْتُ منه المجازاةَ على ذلك، بالترحُّمِ عَلَيَّ عقيبَ الصلوات، والاستغفارِ لي في الخَلَوَات، وإصلاحِ ما يجدُهُ مِن الخلّل والنقصان، فإنَّ السهوَ كالطبيعةِ الثانيةِ للإنسان، ومثلي لا يخلو مِن تقصيرٍ في اجتهاد، واللهُ الموفِّقُ للسداد، فليس المعصومُ إلّا مَن عصمَهُ اللهُ تعالى مِن أنبيائه وأوصيائه، عليهم أفضلُ الصلوات، وأكملُ التحيّات[٦٠].

وقوله في(قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام):« أمّا بعد، فهذا كتابُ «قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام» لخَّصتُ فيه لُبَّ الفتاوى خاصَّة، وبيَّنتُ فيه قواعدَ أحكامِ الخاصَّةِ، إجابةً لالتماسِ أحبِّ النّاسِ إلَيَّ وأعزِّهم عَلَيَّ، وهو الولدُ العزيزُ محمَّد، والذي أرجو لهُ مِن الله تعالى طولَ عُمُرِهِ بعدي، وأن يوسدَني في لحدي، وأن يترحَّمَ عَلَيَّ بعد مماتي كما كُنتُ أُخلصُ له الدعاءَ في خلواتي، رزقهُ اللهُ سعادةَ الدارين، وتكميل الرئاستين، فإنَّهُ بَرٌّ بي في جميع الأحوال، مطيعٌ لي في الأقوالِ والأفعال»[٦١].

وقوله في كتاب الألفين (الفارق بين الصدق والمين): «أمّا بعدُ، فإنّ أضعفَ عبادِ الله تعالى الحسنَ بن يوسف المطهَّر الحليّ يقولُ: أجبتُ سؤالَ ولدي العزيز محمّد -أصلَحَ اللهُ له أمرَ دارَيهِ، كما هو بَرٌّ بوالدَيهِ، ورزقَهُ أسبابَ السعاداتِ الدنيويَّةِ والأخرويَّةِ، كما أطاعني في استعمالِ قواهُ العقليَّةِ والحسِّيَّة، وأسعَفَهُ ببلوغِ آمالِهِ، كما أرضاني بأقوالِهِ وأفعالِهِ، وجَمَعَ له بينَ الرئاستَين، كما أنَّه لم يَعصِني طرفةَ عَينٍ- مِن إملاءِ هذا الكتابِ الموسومِ

بـ(كتاب الألفين الفارق بين الصدق والمين).. وجعلتُ ثوابَهُ لولدي محمّد، وقاني اللهُ عليه كلَّ محذور، وصَرَفَ عنه جميعَ الشرور، وبلَّغَهُ جميعَ أمانيهِ، وكفاهُ اللهُ أمرَ مُعاديه وشانيه»[٦٢].

يقول بعض مؤرخي العلاّمة الحليّ وولده الفخر في وصف طبيعة العلاقة بينهما:« لما قدم مع والده إلى حضرة خدابنده كان شابًا مؤهلًا حسن الأخلاق، مرضي الخصال، نال من والده العظيم التربية اللازمة...»، و«كان والده العلاّمة يعظمه ويثني عليه، ويعتني بشأنه كثيرًا حتى إنَّه ذكره في صدر جملة من مصنفاته...»[٦٣].

الملاحظ من الكلام السابق أنَّ العلاقة بين العلاّمة الحليّ وولده الفخر ترتقي للمثالية فهو يصفه بالـ(برِّ، والمطيع، المراعي لحقوق والده، البعيد عن المعاصي، قوي العقل، الموكل بإكمال باقي كتبه ومؤلفاته، فضلا عن الدعاء له بالتمكن الدنيوي والآخروي، والرزق والعافية، والحفظ من الأعداء والمناوئين...)، وغيرها من المؤلفات التي سار فيها العلاّمة الحليّ على ذات النسق في وصف وتعظيم مكانة ولده (الفخر).

فكيف لهذه العلاقة الأبوية (الروحية) أن تتحوّل في القصيدة التائية إلى هجوم وموعظة قاسية؟ والحال أنَّ صفات ومكانة الفخر وعلميته لا تسمح بمثل هذه المعاني فهو يقول له مثلا:

تَنامُ الدَهرَ وَيحَكَ في غَضيضٍ
بِها حَتّى إِذا مِتَّ اِنتَبَهتَا
وكَم ذا أَنتَ مَخدوعٌ وَحَتّى
مَتى لا تَرعَوي عَنها وَحَتّى
ألا إني دَعَوتُكَ لَو أَجَبتا
إِلى ما فيهِ حَظُّكَ إِن عَقَلتا

وقوله:

رَجَعتَ القَهقَرى وَخَبَطتَ عَشوا
لَعَمرُكَ لَو وَصَلتَ لَما رَجَعتا
ثَقُلتَ مِنَ الذُنوبِ فَلَستَ تَخشى
لِنفسك أَن تَحاسب إِذ وُردتا

فهو هنا يعظه كأنه (ضال، فاسق، مثقل بالذنوب والآثام، لا يخاف يوم الحساب)، وهذا لا يتطابق مع شكل العلاقة التي تقدمها لنا كتب العلاّمة الحليّ والتي تصِف شخصًا عالمًا، عاقلًا، شديدَ التقوى والإيمان، زاهدًا في مفاتن الدنيا، مقبلًا على علومها، والكلام الأخير يتطابق مع شخصية فخر المحققين والذي أعده العلاّمة الحليّ لكي يحلَّ محله في الزعامة الدينية.

لكن الأسلوب يتلاءم تمامًا مع الحادثة المذكورة لكتابة القصيدة في ديوان الإلبيري، فالقصيدة جاءت كرّد على شخص اسمه (أبو بكر) وقد ذكر معايب الشاعر الإلبيري وقد بلغ ذلك الشاعر فما كان منه إلّا أن ردّ عليه مستغلًا الموقف لبسط آرائه في العلم والمعرفة والتوبة والزهد، وهذا يمثل أفضل ردّ من زاهد لشخص يتكلم عنه بسوء[٦٤].

وقد يقول قائل بأنَّ العلاّمة الحليّ أراد أن يعظ ولده من باب الترهيب؛لكي يزداد امتثالًا و وقارًا ويقبل على علوم الدنيا يَدرسها ويُدَرسها لكن هذا القول مردود؛ لأنَّ الوصية النثريَّة حملت الرأي السابق وقد راعت شخصية الفخر وقدمته بوصفه مطيعًا بارًا، فيقول العلاّمة في مقدمتها:« اعلم يا بني أعانك الله على طاعته، ووفقك لفعل الخير وملازمته، وأرشدك إلى ما يحبّه و يرضاه، وبلغك ما تأمله من الخير وتتمنّاه، وأسعدك في الدارين، وحباك بكلّ ما تقر به العين، ومدّ لك في العمر السعيد والعيش الرغيد، وختم أعمالك بالصالحات، ورزقك أسباب السعادات، وأفاض عليك من عظائم البركات، و وقاك الله كل محذور، ودفع عنك الشرور....»[٦٥].

وقال في مكان آخر منها أيضًا:« إياك ومصاحبة الأرذال

ومعاشرة الجهال، فإنَّها تفيد خلقا ذميما، وملكة رديّة، بل عليك بملازمة العلماء ومجالسة الفضلاء، فإنَّها تفيد استعدادًا تامًّا لتحصيل الكمالات، وتثمر لك ملكة راسخة لاستنباط المجهولات...»[٦٦].

فالأسلوب مختلف على الرغم من اتّحاد الموضوع والقصيدة موجّهة للشخصية نفسها إلّا إذا تغيّر رأي العلامّة بولده بمرور السنوات؛ لأنَّ العلامّة كتب الوصية النثرية خوفًا من أن يداهمه الموت وهو في العقد السادس من عمره[٦٧] وبذلك نفترض أنّه كتب الوصية الشعريَّة في مرحلة زمنية أخرى، ومعنى هذا أنَّ الفخر على الرغم من تقدمه بالعمر غرّته الحياة واندفع في ملذاتها، وهذا ما لا يقبله عقل.

المحور الثالث: الفارق الزمني بين الشاعر الإلبيري والعلاّمة الحليّ (رحمهما الله).

تعدّ الناحية الزمنية عنصرًا في غاية الأهمية لتحديد نسبة نص ما لصاحبه الأصلي، ويرتبط بالزمن جانب آخر وهو المكان الذي يشكّل مع الزمان الفضاء النصي لأي نص كان، فلا انفصال بين العنصرين فإذا وجد الزمان وجد المكان ولو بصورة غير مباشرة والعكس صحيح، وبذلك دراسة الفرق الزمني والمكاني للشخصيتين يمكن أن يساعد في كشف نسبة هذه القصيدة، فالمدة الزمنية التي عاش فيها العلامّة الحليّ مختلفة تمامًا عن المدة الزمنية التي عاش فيها الإلبيريّ، وكذا المكان فالعلامّة الحليّ عاش في العراق وإيران وسافر إلى الحجاز[٦٨]، في حين عاش الإلبيري في الأندلس وتنقل فيها، وهذا يؤكد على اختلاف الثقافة والبيئة التي -بالضرورة- أسهمت في تكون شخصيتهما العلمية على الرغم من كونهما ينتميان للمدرسة الفقهيَّة الإسلاميَّة لكنهما عاشا في

زمان ومكان مختلفين وعلى الرغم ذلك ربطت القصيدة التائية بينهما.

زمنيا ولد الشاعر الإلبيريّ نحو سنة (٣٧٥هـ) في مدينة حصن العقاب القريبة من مدينة البيرة، وتوفي نحو(٤٦٠هـ)[٦٩]، وفي مقابل ذلك ولد العلاّمة الحليّ عام(٦٤٨هـ) في العراق في مدينة الحلّة، وتوفي عام (٧٢٦هـ) في الحلّة ودفن بجوار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)[٧٠]، فالفارق الزمني بينهما (٢٧٣) سنة، فضلًا عن الاختلاف المكاني بينهما.

وبناءً على ذلك نجدُ مجموعة من المؤلفات الأندلسيّة التي ذكرت القصيدة ونسبتها للشاعر الإلبيريّ مؤلفةً قبل ولادة العلاّمة الحليّ الأمر الذي يؤكد نسبة هذه القصيدة للإلبيري ومنها فهرسة ابن خير الإشبيلي(٥٧٥هـ) إذ ذكرها فقال: «قصيدة بديعة فِي الزّهْد تائية لأبي إِسْحَاق إِبْرَاهِيم بن مَسْعُود بن الإلبيري رَحِمَه الله»[٧١]، وأيضا في كتاب(التكملة لكتاب الصلة)[٧٢] لابن الأبّار (٦٥٨هـ)الذي ذكر القصيدة الزهدية التائية، فضلًا عن الديوان الذي من المفترض أن يكون أوثق مصدر؛ لأنّه يمرّ بمراحل من التحقيق والتمحيص قبل إثبات أي نص فيه.

المحور الرابع: التشابه والاختلاف بين القصيدتين

حفلت القصيدة التائية المنسوبة للعلاّمة الحليّ مقارنة بالقصيدة التائية الموجودة في ديوان الشاعر الإلبيري بمجموعة كبيرة من الاختلافات قمت بتوضيحها في هامش التحقيق، فنجدُ كلمات عديدة قد تمّ استبدالها وتغيير مواضعها، وتقديم وتأخير في الأبيات فضلًا عن إضافة وحذف لبعض الأبيات الأمر الذي يبيّن أنّ هنالك تلاعبًا من قبل النساخ عمدًا أو سهوًا، وربما يكون العمد أقرب إلى الحقيقة؛ لأن حذف الناسخ اسم

الشخص الذي وَجَّه الشاعر الإلبيري إليه القصيدة في موضوعين، فقال الإلبيري:

أَبَا بكرٍ دَعَوتُك لَو أَجِبْتَا
إِلى ما فيهِ حَظُّكَ إِن عَقَلتَا

وفي القصيدة التي نحن بصدّدها قال:

أَلَا إِنِّي دَعَوتُكَ لَو أَجَبتا
إِلى ما فيهِ حَظُّكَ إِن عَقَلتَا

فمن الواضح أنَّ التغيير كان متعمدًا فتمّ حذف اسم الشخص الذي اختصم معه الشاعر الإلبيري الذي كان سببًا في ظهور القصيدة، فهذا الشخص الذي يدعى أبا بكر كان قد ذَكر بعض معايب الشاعر الإلبيري الأمر الذي دفع الشاعر للردّ عليه بهذه القصيدة[٧٣].

وفي الموضع الثاني حذفت ثلاث أبيات دفعة واحدة ذكر في أولها (أبا بكر) أيضًا، وهي:

أَبا بَكرٍ كَشَفتَ أَقَلَّ عَيبي
وَأَكثَرَهُ وَمُعظَمَهُ سَتَرتا
فَقُل ما شِئتَ فيَّ مِنَ المَخازي
وَضاعِفها فَإِنَّكَ قَد صَدَقتا
وَمَهما عِبتَني فَلِفَرطِ عِلمي
بِباطِنَتي كَأَنَّكَ قَد مَدَحتا

فالتركيز على حذف أية دلالة تبيّن أو تؤشر نسبة القصيدة من قبل من قام بذلك فجعل كثيرين من بعده يقلدون ذلك تقليدًا أعمى من دون البحث والتقصي على الرغم من شهرة القصيدة؟!

فضلًا عن الاختلافات الأخرى المؤشرة في هامش القصيدة فقد غيَّر الناسخ أو من قام بذلك عديد الكلمات وحذف بعض الأبيات لكن عوّض عنها بكلمات أو أبيات نستطيع أن نقول إنَّها رديفة لها فمثلا استبدل كلمة (غطيط بغضيض)إشارة للتعمق

في الحياة ومباهجها، و(ذخره بأجره) إشارة إلى النفع جراء العمل الصالح، و(بون ببينٍ) إشارة إلى الاختلاف بين أمرين يراد فهمهما، و(كريمًا بعزيز) إشارة للمكانة المتحصلة جراء مخافة الله تعالى، وذلك ليس لشيء سوى أنّ السياق العام للقصيدة يرفض التغيير الكامل للنص أو حتى تغيير بعض كلماته لأنّ الموسيقى والمعنى سيتضرّر وبذلك تفشل المحاولة!

هذا من ناحية الاختلاف أمّا من ناحية التشابه فالقصيدة التي وردت في ديوان الإلبيري متشابهة بنسبة تتجاوز (٩٠٪) مع القصيدة التي وردت على أنّها للعلّامة الحليّ، فهي تحمل الموضوع نفسه، وبذات البحر الشعري وهو (الوافر)، وبألفاظ ومعانٍ لا تختلف إلا في مواضعَ معيّنة كما أشرنا في هامش التحقيق.

وبناء على هذا يتبيّن للباحث أنَّ القصيدة التائية هي للشاعر الألبيري وليس للعلّامة الحليّ صلة بها، والمحاور السابقة تبيّن ذلك بوضوح.

مناقشة

بعد أن بيَّنا أنَّ القصيدة منسوبة للعلّامة الحليّ وليست له، وإنّما نُسبت له عمدًا أو سهوًا من قبل النساخ أو غيرهم، نطرح السؤال الآتي، وهو: لماذا نُسبت هذه القصيدة للعلّامة الحليّ على الرغم من أنَّه لم يُعرف كشاعر، وكذا المضامين وقوة الموعظة التي تضمنّتها القصيدة لا تتلاءم مع علاقة العلامّة الحليّ وولده فخر المحققين، فضلًا عن الفارق الزمني والاختلاف والتشابه بين القصيدتين؟

والسؤال الآخر: هل يحتاج شخص بمكانة العلامّة آنذاك أن تنسب له قصيدة، وقد وصلت شهرته إلى جميع الآفاق؟ وهل سيضيف ذلك له شيئًا أم سيسمح للناقمين عليه بأن ينتقصوا منه ومن مذهبه بقولهم: نسبوا إليه ما ليس له؟

في الحقيقة نسبة هذه القصيدة للعلّامة الحليّ والبحث عن الدافع الذي يكمن وراء ذلك في غاية الصعوبة؛ لأنَّ القصيدة لا تتطابق مع طبيعة وبيئة العلاّمة الحلِّيّ، فعادةً في مثل هذه الحالة تنسب القصيدة لغير صاحبها إمّا لطلب الشهرة أومن خلال الخطأ من قبل النساخ بشرط أن يكون الخطأ غير متعمدٍ لكن التعمد واضح كما بيَّنا سابقًا، فقد تمّ تغيير بعض الكلمات التي يمكن أن تبيّن زيف نسبة هذه القصيدة للعلّامة الحليّ !

وبناء على ذلك هناك جملة من الأسباب أو الدوافع التي ربَّما يقف أحدها وراء نسبة هذه القصيدة للعلّامة الحليّ في بعض المخطوطات والكتب والأخبار، نجملها بما يأتي:

١- جهل النساخ: جهل النساخ عامل مهم في ضياع نسبة كثير من الكتب أو القصائد فتنسب لغير أصحابها الأصليين، فربما قرأ الناسخ الاسم قراءة مغلوطة أو اشتبه الاسم عليه فكثير من العلماء والفقهاء يلقبون بالعلاّمة وحتى الإلبيري كان عالمًا فقيهًا يقترب في اختصاصه من العلاّمة الحليّ لكن ذكر فخر المحققين في عنوان المخطوط يقلّل من هذه الفرضية.

٢- التشابه بين مضامين قصيدة الوصية الزهدية ووصية العلاّمة الحليّ النثرية التي أيضًا كانت زهدية ولها شهرتها إلى يومنا هذا، فالمضامين متشابهة، الأمر الذي قد يكون وراء تداخل الأمر عند بعض النساخ، فالقصيدة زهدية وهي وصية، ووصية العلاّمة زهدية لكنها نثرية، فالتقارب والشهرة قد يكونا سببًا في هذا التداخل.

٣- ربما تمثَّل العلاّمة الحليّ ببعض أبيات القصيدة الزهدية أو ذكرها في بعض كتبه التي لم تصل لنا الأمر الذي جعل بعضهم يظن أنّها له، فهناك رأي سمعته من بعض المتخصصين في حياة وكتب العلاّمة الحليّ أنَّه لم يقل الشعر

قط بل جميع ما نسب إليه من باب التمثل والاستشهاد بها.

والأمر الذي يقوي هذا الرأي أنّ بعض الكتب التي أوردت القصيدة ومنها مجلة تراثنا ذكر القصيدة عن مخطوطة في مكتبة الإمام الرضا(عليه السلام) في قم وبالرقم(٦١٩٦) وقد احتوت على (٢١) بيتًا فقط، وهي بذلك تخالف بقية المخطوطات في عدد الأبيات، الأمر الذي يقوي كلامنا في بداية هذه النقطة، فلاحظ.

الخاتمة

توصل البحث إلى جملة من النتائج، وهي كالآتي:

- يعدّ الزهد من أهم الأغراض الشعرية وأوسعها مساحة إذ يمثّل الزهد التيار المعارض لحياة الترف واللهو التي شاعت في مختلف البلدان الإسلاميَّة، فهو منبه للإنسان من الإقبال على الدنيا ومفاتنها، وقد استغل هذا الغرض كثير من الشعراء لترهيب الناس وإبعادها عن الدنيا الفانية.

- إنّ القصيدة التائية نسبت للعلّامة الحليّ (رحمه الله) وفقًا للمعطيات النصيّة والزمنية وحتى المكانيّة التي تؤكد أنّ هذه القصيدة للشاعر الفقيه الإلبيري، ولعل السبب الأكبر في هذا التداخل في النسبة بين الشخصيتين يرجع إلى كونهما فقيهين وقد كتبا في الوعظ والإرشاد فالأول من شعراء الزهد والثاني من نثار الزهد الذي ضمّن كتبه عديد الوصايا التي تحفل بمعانٍ قريبة من المعنى العام الذي تقدمه القصيدة التائية التي قالها الإلبيري.

- لا يعدّ نفي نسبة القصيدة عن العلاّمة الحليّ تصغير للعلامة الحليّ بل على العكس تمامًا إذ في ذلك فائدة تتجلّى في أنّنا لا نسعى إلى انتحال أو إلصاق قصيدة أو كتاب لشخصية مثل العلاّمة الحليّ فهو ليس بحاجة إلى هكذا نوع من الانتحال، وبيان ذلك كان هدف هذا البحث من باب التحقيق والتمحيص.

الهوامش:

١- يراجع عن الزهد وتاريخه الكتب الآتية: التعريفات: ١٨٤، الزهد الكبير: ٨٧، وما بعدها، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس: ١/ ٤٠٥، وما بعدها.

٢- في ديوان الإلبيري: «غطيط».

٣- في الديوان: « أبا بكر دعوتك لو أجبتا»، وهنا تمَّ حذف اسم الشخص الذي وجّه الشاعر له القصيدة واستبدل بـ (ألا إنَّي).

٤- في الديوان:« ذخره».

٥- في الديوان:« مقاتل».

٦- في «ب»: (أين)

٧- في «ب»: (فلا يلهيك).

٨- في الديوان: (ولا خدر بربربه)

٩- في «ب»: (ولا).

١٠- في «ب »: (بزينتها).

١١- في الديوان:(حقا).

١٢- في الديوان: (وتغبطها).

١٣- في الديوان: (بون).

١٤- في الديوان: (لئن).

١٥- في الديوان:(فماذا).

١٦- في «أ»زيادة كلمة (أخرى) ولا تتلاءم مع الوزن والمعنى، وفي الديوان: (تسوؤك حقبة وتسرُّ وقتا)

١٧- في الديوان:(كظلك).

١٨- في «ب»:(منها).

١٩- في «ب»:(جهلا).

٢٠- عجز البيت في الديوان: (ولا تدري أتفدى أم غلقتا).

٢١- في الديوان: (السؤال).

٢٢- في« ب»:(يعيرني)، وفي الديوان: (تقطعني).

٢٣- في الديوان: (إن غرقتا).

٢٤- في الديوان: (ظلم).

٢٥- في الديوان:(ونهنهك).

٢٦- في الديوان بيت بعد هذا البيت لم يرد في القصيدة، وهو:

فأنت أحقّ بالتفنيد مني
ولو سكت المسيء لما نطقتا.

٢٧- في الديوان عجز البيت:(لجهلك أن تخفّ إن وزنتا).

٢٨- في الديوان:(للمصرِّ).

٢٩- في الديوان قبل هذا البيت:

ولم يظلمك في عمل ولكن
عسيرٌ أن تقوم بما حملتا

٣٠- في الديوان:(احتسبت).

٣١- في الديوان بعد هذا البيت ثلاثة أبيات لم تذكر في المخطوطة وهي:

أَبا بَكرٍ كَشَفتَ أَقَلَّ عَيبي
وَأَكثَرَهُ وَمُعظَمَهُ سَتَرتَا
فَقُل ما شِئتَ فيَّ مِنَ المَخازي
وَضاعِفها فَإِنَّكَ قَد صَدَقتَا
وَمَهما عِبتَني فَلِفَرطِ عِلمي
بِباطِنَتي كَأَنَّكَ قَد مَدَحتَا

٣٢- في الديوان بعد هذا البيت:

ولست تطيق أهونها عذابا
ولو كنت الحديد بها لذبتا.

٣٣- في الديوان: (بالوجيه).

٣٤- في الديوان: (تَنعلُك).

٣٥- في الديوان:(فتُلفَى).

٣٦- في الديوان: (كريما).

٣٧- في الديوان:(ممّا).

٣٨- في الديوان:(بعابٍ).

٣٩- في الديوان:(ثوبك).

٤٠- في الديوان:(زور).

٤١- في الديوان: (خبتا).

٤٢- في الديوان:(ودنَّس).

٤٣- في الديوان جاء هذا البيت على هذه الشاكلة: وصِرتَ أَسِيرَ ذَنبكَ فِي وثاقٍ وَكَيفَ لكَ الفِكَاكُ وَقَد أُسِرتَا.

٤٤-

٤٥- لم يرد هذا البيت في الديوان.

٤٦- في الديوان: (السلام).

٤٧- في الديوان بعد هذا البيت يأتي آخر وهو:

وقد أَرْدَفتُهَا سِتًّا حِسَانًا
وَكَانَت قَبلُ ذَا مِئَةٍ وَسِتّا.

٤٨- وجدت في آخر المخطوطتين شعرًا لأمير المؤمنين (عليه السلام) يتقارب ومعنى القصيدة، وهي:

قال علي (عليه السلام):

لَوْ كَانَ هَذَا العِلْمُ يَحْصُلُ بالمُنَى مَا كَانَ
يَبْقَى فِي البَرِيَّة جَاهِلُ
اِجْهَدْ ولا تَكْسَلْ وَلاتَكُ غافِلاً
فَنَدَامَةُ العُقْبَى لِمَنْ يَتكاسَلُ
رَضينا قِسمَةَ الجَبّارِ فينا
لَنا عِلمٌ وَلِلأعداء مالُ
فَإِنَّ المالَ يَفنى عَن قَريبٍ
وَإِنَّ العِلمَ باقٍ لا يزالُ

وردت هذه الأبيات في ديوان الإمام علي (عليه السلام): ٧٦، ٨٤. وهي

ضمن ما ينسب له كرم الله وجهه، وأيضًا جاءت كلمة (وللجهال) بدل كلمة (للأعداء)، فلاحظ.

وفي «ب» لم يرد البيتان الأخيران(رضينا قسمة....و فإنّ المال...)، وفيها أيضًا نجد الناسخ يقول قال علي (عليه السلام) ثم يذكر البيتين، وفي «أ»: لم يرد قوله(قال علي عليه السلام) بل يضعها ضمن نسيج القصيدة العام، ويزيد عليها قول الإمام علي(عليه السلام): (واذكروا انقطاع اللذات وبقاء التبعات).

٤٩- ينظر ديوان الإلبيري: ٢٣، وما بعدها.

٥٠- فضلًا عن المخطوطات السالفة الذكر ينظر: رسالة الوصية للعلّامة الحليّ لولده فخر المحققين: ١١٣، وصية العلامّة الحليّ لولدِه فخر المحققين، مجلة تراثنا، ع١، س٢، ٣٣٠، فهرس فنخا: ٣٢/ ٥٦٦، ومخطوطة كتاب (براهين العقول في كشف أسرار تهذيب الأصول) للشيخ محمد بن يونس الشويهي(نحو ١٢٤٠هـ)، المجلد الأول من الصحيفة ٦١٣ -٦١٧، وهي موجودة في مكتبة الإمام الحكيم العامة بالرقم(٨١/ ٣٥٥)،و مخطوطة كتاب (مجادلات المسلمين في شريعة سيد المرسلين) للشيخ الشويهي في الصحيفة رقم(٧)، ولم أحصل على معلومات هذه المخطوطة لكني حصلت على صورة القصيدة فيها والتي سأضعها مع صور المخطوطات. وهناك مخطوطة بالرقم (٦١٦٩) في المكتبة الرضوية في إيران تشير بعض المصادر أنَّها تحوي على قصيدة الوصية وقد حصلت عليها بمساعدة مكتبة مخطوطات العتبة العباسية المقدسة لكني لم أجد فيها هذه القصيدة على الرغم من أنَّها تحمل الرقم نفسه ومن المكتبة ذاتها.

٥١- يراجع كتاب قواعد الأحكام للعلّامة الحليّ إذ أثبت فيها وصيته: ١/ ١٥١.

٥٢- رياض العلماء: ١/ ٣٥٩.

٥٣- ينظر: م. ن.

٥٤- رياض العلماء: ١/ ٢٨٣.

٥٥- روضات الجنات: ٢/ ٢٨٥،

قصص العلماء: ٦١٥.

٥٦- مختلف الشيعة: ١/ ١٤٤، روضات الجنات: ٢/ ٢٨٥.

٥٧- قصص العلماء: ٦١٤.

٥٨- ينظر: مجالس المؤمنين: ٣٥٦-٣٥٩، روضات الجنات: ٢/ ٢٨٤، ٢٨٥، أعيان الشيعة: ٥/ ٣٩٨.

٥٩- منها كتاب: تسليك النفس إلى حظيرة القدس: ١٩، تهذيب الوصول إلى علم الأصول: ٤٣، قواعد الأحكام في شرح مسائل الحلال والحرام: ١/ ١٧٣، ١٧٤، كشف الفوائد في شرح العقائد: ٣٥، ٣٦، وغيرها.

٦٠- إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان: ١/ ٢١٧.

٦١- قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام: ١/ ١٧٣-١٧٤.

٦٢- الألفين (الفرق بين الصدق والمين): ١/ ٤٤.

٦٣- مجالس المؤمنين: ٢/ ٣٦٣، الكنى والألقاب: ٢/ ٤٩٩.

٦٤- ينظر ديوان الإلبيري: ٢٣.

٦٥- رسالة الوصية للعلّامة الحليّ: ١٠٨.

٦٦- م. ن: ١٠٩.

٦٧- قواعد الأحكام: ١/ ١٥١، رسالة الوصية للعلّامة الحليّ: ١٠٨.

٦٨- تنقلات العلامّة الحليّ في ضوء الآثار والرحلات: ٤٦١.

٦٩- ينظر: تاريخ الأدب العربي: ٨/ ٣٥٣، الأعلام: ١/ ٧٣، ديوان الإلبيري: ٧، وما بعدها.

٧٠- ينظر: رياض العلماء: ١/ ٣٧٢، أعيان الشيعة: ٣٩٦.

٧١- فهرسة ابن خير الإشبيلي: ١/ ٣٧٤.

٧٢- التكملة لكتاب الصلة: ١/ ٢٤٦.

٧٣- ينظر ديوان الإلبيري: ٢٣.

المصادر والمراجع:

١- وصية العلامّة الحليّ لولدة فخر المحققين (وثائق تاريخية)، مجلة تراثنا، ع١، س٢، ١٤٠٧هـ.

٢- ديوان الإلبيري: أبو إسحاق الإلبيري، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

٣- مجالس المؤمنين: نور الله المرعشيّ التستريّ(١٠١٩هـ)، تعريب وتحقيق: محمد شعاع فاخر، المكتبة الحيدريَّة، قم، ط١، ١٤٣٣هـ.

٤- قواعد الأحكام في شرح مسائل الحلال والحرام: الحسن بن يوسف المطهّر (٧٢٦هـ)، تح: مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٣هـ.

٥- رياض العلماء وحياض الفضلاء: الميرزا عبد الله الأفنديّ(ق ١٢)، تح: أحمد الحسينيّ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٦- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: الميرزا محمد باقر الموسويّ الخونساريّ(١٢٢٦هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م.

٧- تنقلات العلامّة الحليّ في ضوء الحوادث والأخبار: ناصر قاسمي رزوه، مصطفى صباح الجنابيّ، مجلة تراث الحلّة، الحلّة، ع٦، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٧م.

٨- الألفين، الفرق بين الصدق والمين: الحسن بن يوسف المطهّر (٧٢٦هـ)، تح: المؤسسة الإسلامية للبحوث والمعلومات، قم، ط١، ١٤٢٣هـ.

٩- أعيان الشيعة: السيد محسن الأمين(١٣٧١هـ)، تح: السيد حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣هـ.

١٠- رسالة الوصية للعلامة الحليّ لولده فخر المحققين، تح: ثامر كاظم الخفاجي، مؤسسة دار الصادق الثقافية، بابل، د.ط، ٢٠١٣م.

١١- تسليك النفس إلى حظيرة القدس: الحسن بن يوسف المطهّر (٧٢٦هـ)، تح: فاطمة رمضانيّ، مؤسسة الإمام الصادق، قم، ط١، ١٤٢٦هـ.

١٢- تهذيب الوصول إلى علم الأصول: الحسن بن يوسف المطهّر (٧٢٦هـ)، تح: السيد محمد حسين الرضويّ، منشورات مؤسسة الإمام علي(عليه السلام)، لندن، ط١، ١٤١٢هـ، ٢٠٠١م.

١٣- كشف الفوائد في شرح قواعد العقائد: الحسن بن يوسف المطهّر (٧٢٦هـ)، تح: حسن مكي العامليّ، دار الصفوة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

١٤- الكنى والألقاب: عباس القمي، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٢، ١٤٢٩هـ.

١٥- إرشاد الأذهان إلى أحكام الإيمان: العلامّة الحليّ، تح: فارس حسون، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط١، ١٤١٠هـ.

١٦- قصص العلماء: محمد بن سلمان التنكابني، تر: مالك وهبي، ط٢، ذوي القربى، قم، ١٤٢٩هـ.

١٧- التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، تح: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، د.ط، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٨- فهرسة ابن خير الإشبيلي: ابن خير الإشبيلي، تح: بشار عواد معروف، محمود بشار عواد، دار الغرب الاسلامي، تونس، ط١، ٢٠٠٩ م.

١٩- الأعلام: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢ م.

٢٠- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، دار الجيل، بيروت، د.ط، ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.

٢١- مختلف الشيعة: العلامّة الحليّ، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط٣، ١٤٣٣هـ.

٢٢- فهرستكان نسخه هاى خطى إيران (فنخا)، إعداد، درايتي، مصطفى، نشر المكتبة الوطنيَّة في إيران، طهران، ط١، ١٣٩٠ش.